

الأوثان في الجاهلية من خلال القرآن

بقلم : محمد المختار العبيدي

لم يكن للعرب في الجاهلية إله واحد يعبدونه ولا مناسك مشتركة يقومون بها وقت العبادة ، بل كان لهم آلهة كثيرة صنعوها بأيديهم وعبدوها خوفاً وطمعاً وقدموا لها الهدايا والقرايين تقرباً وتزلفاً ، وظلوا لها عاكفين وقت الحاجة . فكانوا يستمطرونها وقت الجفاف ويحلفون بها لتأكيد الأيمان ويسمّون أبناءهم بأسمائها تيمناً وتبرّكا .

ولئن كانت ديانة العرب في الجاهلية على هذا النحو من البساطة فإنها تعكس عقلية الجاهلي الذي كان يحنّ الى قوة - فوق كل القوى - باستطاعتها في نظره حمايته من مصائب الدهر وكوارثه . لذلك كان يصطفي إلهه من جملة آلهة كثيرة وينقطع الى عبادته حتى إذا وجد ما هو أحسن منه أو أشد شهرة أعرض عنه وولّى وجهه غيره كما تدلّ على ذلك الآية : « أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَاهَهُ هَوَاهُ » (1) وقد قال السيوطي في شأن هذه الآية : « أخرج ابن المنذر وابن

جرير عن سعيد بن جبير قال : كانت قريش تعبد الحجر حيناً من الدهر فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر» (2) .

ويقدر ما خاف الجاهلي من الدهر الغامض عبد الآلهة وقُدّسها . لذلك كثرت الآلهة في الجاهلية وكاد يكون لكل بيت صنم يعبد به أهل ذلك البيت زيادة على الآلهة المشتركة المعروفة وهي اللات والعزى ومناة .

فتعدد الآلهة قديماً إنما كان سببه حاجة الإنسان الى قوة قاهرة - مجسمة في أغلب الأحيان في ذلك الصنم الذي يصنعه بيده تقيه شرّ الكوارث والمصائب ، فلم يعبدها لذاتها بقدر ما عبدها لكونها في نظره الدرع الواقي من الأخطار والشُرور والحِرَز الذي يَتَحَرَّزُ به مما قد يلحق به من أذى مع كر الدَّهور .

وقد سعى العرب في الجاهلية الى تجسيم الآلهة في أغلب الأحيان لأنهم كانوا يريدون أن يروها رؤية العين ويتبركوا بها ويطوفوا بها وقت الطواف . فلم يكن بمقدورهم أن يتصوروا إلها في المطلق « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » (3) . ولعلّ في لجوئهم الى الحجارة والحديد والذهب والخشب يَنَجِّتُونَ منها معبوداتهم تفسيراً لهذه الرغبة في التجسيد . و « المطلق » بالنسبة إليهم إنما هو الدهر الغامض بأرزائه وخطوبه . جاء في تفسير سبب نزول الآية « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ » (4) أن « النسائي والبخاري أخرجا عن أنس أنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من أصحابه الى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه الى

(2) السيوطي : أسباب النزول ص 662 مكتبة الملاح دمشق . دون تاريخ .

(3) الأنعام/ 103 .

(4) الرعد/ 13 .

الله فقال : إِيْشُ ربك الذي تدعوني إليه أمن حديدٍ أو من نحاسٍ أو من فضةٍ أو ذهبٍ فأُتِيَ النَّبِيُّ - صلعم - فأخبره فأعاد الثانية والثالثة فأرسل الله عليه صاعقة فأحرقتة ونزلت هذه الآية : ويرسل . . . الآية » (5) .

وقد اقترن لفظ « دهر » عند العرب في الجاهلية بكلمة « ريب » . فخوفهم من الدهر ساقهم إلى عبادة الآلهة القادرة وحدها على الوقوف في وجه الدهر . لذلك جاء في القرآن على لسان العرب في الجاهلية : « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » (6) . وليس الدهر الأيام بنهرها ولياليها فقط وإنما هو الأيام بأرزائها وخطوبها . جاء عن أبي هريرة عن رسول الله (ص) أنه قال : « كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار فأنزل الله : « وقالوا ما هي إلا حياتنا . . . الآية » (7) .

وقد تجلّى هذا الخوف من الدهر في الشعر الكثير الذي قاله الجاهليون في ذكر الخطوب عامة وفي الرثاء بخاصة . تقول الخنساء في شأن الدهر الرّياب :

[بسيط]

يا عين مالك لا تبكين تسكابا إذ راب دهر وكان الدهر ريباً

ويقول المهلهل في رثاء أخيه كليب :

[خفيف]

ذهب الدهر بالسماحة منّا يا أذى الدّهر كيف ترضى الجماحا

(5) السيوطي : أسباب النزول ص 455 .

(6) الجاثية/24 .

(7) السيوطي : أسباب النزول ص 663 .

وقالت جليلة بنت مرة زوجة المهلهل ترثي كليبا وتشكو « غمّة

الدهر » :

[رمل]

جلّ عندي فعل جسّاس بنا غمّة للدهر ليست تنجلي
يا قتيلا قوّض الدهر به سقف بيتيّ جميعا من عل
هدم البيت الذي استحدثته وأنثى في هدم بيتي الأوّل

فليس غريبا أن خافت العربُ الدهر وحذرت له لأنّه كان مصدر البلايا
والرزايا وهو يخيّء للناس من المفاجآت ما لا يدرون . فالدهر « مريب » مزعج
حامل للمكاره مكره عليها وهو « غمّة » تقطع الأنفاس و « تذهب » إلى الأبد
بمن حازوا الخلال والشمائل وهو « مؤذ » يخلف في النفوس أسى ولوعة على
المفقود وهو أيضا « مقوض البيوت » . فإذا كان الدهر بمثل هذه الصفات التي
يراها فيه الشاعر الجاهلي حق للناس أن يحذروه ويتوقّوه ولهذا كله « ورد لفظ
دهر ومرادفاته في الشعر الجاهلي مقترنا بكلمة ريب أي تهديدات وهجومات
غادرة . فقد أعتبرت العرب الدهر قوة معكرة لصفاء العيش » (8) .

فكان لجوء العرب الى آلهة مزعومة من باب الإحتماء والتّوقي . وهي
آلهة لكثرتها وبساطتها قد أعرض القرآن عن تسميتها بأسمائها - إلا ما اشتهر
منها فلم يأت الحديث عنها بذكر صفاتها لانتفاء الصفة عنها ولا بذكر أفعالها
ومزاياها لاستحالة الفعل عليها وعجزها عن نفع الناس وإلحاق الضرر بهم .
فلم تكن هذه الآلهة إلّا « أساء » سمّاها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها
من سلطان . (9) .

(8) د . محمد عبد السلام : الموت في الشعر العربي من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث الهجري ص 69 وما بعدها منشورات الجامعة التونسية 1977 .

(9) أنظر سورة الأعراف/ 71 وسورة يوسف/ 40 وسورة النجم/ 23 .

ويرجع ابن الكلبي (10) صاحب « كتاب الأصنام » سبب عبادة العرب الأصنام لانتقال بعض أولاد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام من مكة ظاعنين وقد ضاقت عليهم الكعبة بما رحبت فأخرج بعضهم بعضا « فكان الذي سَلَخَ بهم الى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصباغة بمكة فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة » (11) . فكانت هذه العبادة نقطة البدء لعبادة مستفيضة للأصنام . فنسي الناس دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وتفرغوا لعبادة الأوثان .

فلئن دلّ هذا الخبر على أنّ العرب كانت تبجل الكعبة وتُحِلُّها الى حدّ أنها كانت لا تظعن إلا وحملت معها حجراً منها لا خوفاً من الدهر الرياب وإنما تبرّكا بها وتعلّقاً بالأرض الطيبة المهجورة فإننا نجد خبرا ثانيا لابن الكلبي نفسه يقول فيه : « ثم إنه مرض (لحيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي وهو أول من غير دين اسماعيل) مرضا شديدا ف قيل له إنّ بالبلقاء من الشام حمةً إن أتيتها برأت فأتاها فاستحمّ بها فبرأ ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال ما هذه فقالوا نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة » (12) .

فللصنم حسب ما هو وارد في هذا الخبر مقاليد السماء التي تنحسّ بإذنه وتنبّجس بمشيئته وهو المستغاث وقت الحروب والمكاره ، فدوره يبقى دوما

(10) ابن الكلبي هو هشام بن محمد بن السائب بن بشر الكلبي وكنيته أبو المنذر . كان من رجال الكوفة العدودين وتوفي سنة 204 هـ . بلغت تصانيفه على ما هو مذكور في الفهرست لابن النديم 141 كتابا لم يحفظ لنا منها التاريخ إلا « كتاب الأصنام » و « كتاب نسب الخيل في الجاهلية والإسلام » و « جهرة النسب » أنظر الدراسة القيمة التي قدّم بها الأستاذ أحمد زكي كتاب الأصنام وعرف فيها بابن الكلبي مؤلفه . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة 1384 هـ - 1964 م .

(11) المرجع السابق ص 6 .

(12) نفس المرجع ص 8 .

الوقاية وشد الأزر وتخفيف المصاب . وهو أيضا رمز العافية والشفاء إذ يرى العليل ويزيل الداء .

ومهما يكن من أمر هذه الأوثان فقد اعتبر القرآن واضعيها وسدنتها وعبدتها مشركين لإشراكهم إياها فيما لا يقبل الله الواحد فيه شريكا ، فقد كانت ابتهالات بعض القبائل العربية في الجاهلية تدل على ذلك ، من ذلك أن قبيلة نزار كانت تقول وقت العبادة : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، إِلَّا شَرِيكَ هَوْلَكَ ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلِكُ » (12) .

ففي هذا التسييح طاعة وإتيمارٌ لرب واحدٍ من صفاته أنه مدبر الكون ومملكه إلا أن هذا الإلاه يُعَاذُهُ حسب قبيلة نزار إلاه آخر أقل منه قدرة وأضعف شأنًا لأنه منبثق عنه وليس له عليه ولا معه سلطان وهو الصنم أو الوثن .

وقد نصّ القرآن على هذا الإشراك إذ يقول : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » (14) . فإيمان العرب قبل مجيء الإسلام كان مشوبا بإشراك بل أكثر من ذلك فلا إيمان من دون إشراك كما تدل على ذلك أداة الحصر : « مَا . . . إِلَّا » . فعبادة الأوثان بالنسبة إليهم هي دليلهم الوحيد على أن لهم ربًا يحميهم بالبيت وخارجه وأن لهم طقوسا وعبادات يؤدونها لقوة مجسمة حاضرة حضورًا فعليًا ، وقد أرادوا هذه « القوة » قريبة لا بعيدة ، تُرى بالعين ولا يتعب العقل في تصوورها وتمثلها .

وقد عبدت العرب في الجاهلية تماثيل وأنصبا مختلفة الألوان والأشكال فقد كان « هبل » وهو أعظم الأصنام المنصوبة بجوف مكة من عقيق أحمر على

(13) ابن الكلبي : كتاب الأصنام ص 7 .

(14) يوسف/106 .

صورة إنسان ، وكانت « اللات » صخرة مربعة الشكل منصوبة بالطائف وكان « ذو الخلصة » مروة (أي حجارة صلبة تعرف بالصّوان) بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج . (15) .

وليس غريبا أن كان الصليب هو الآخر وَثْنًا قَدَسَتْهُ النَّصَارَى ، فقد جاء في « لسان العرب » لابن منظور في شرح لفظة « وثن » أن عديّ بن حاتم قال : « قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي : أَلْقِ هذا الوثن عنك ، أراد به الصليب » (16) . وإذا أخذنا بيت الأعشى الذي يقول فيه (متقارب) :

تَطُوفُ الْعِفَاءُ بِأَبْوَابِهِ * كَطُوفِ النَّصَارَى بَبَيْتِ الْوِثْنِ
يكون النصارى - وهم أصحاب دين سماوي قد نصبوا الصليب وعبدوه مثلهم في ذلك كمثل العرب في نصبهم للتماثيل . يقول ابن منظور معلقا على بيت الأعشى : « وكانت النصارى نَصَبَتِ الصَّليب وهو كالتماثيل تعظمه وتعبده ولذلك سماه الأعشى وثنًا » (17) .

فيمكن إذا اعتبار جميع الأنصاب مهما كان شكلها ومهما كانت المادة التي صنعت منها محرمة سواء لجئ إليها قصد التقرب إلى الله أو التشفع بها إليه عند الشدائد . ولعل الإفراط في تقديس هذه النصب والسعي الدائم الى التوسل اليها وخدمتها من قبل من سُمُوا بِالسَّدَنَةِ هو الذي قاد عامة الناس الى

(15) ابن الكلبي : كتاب الأصنام ص 34 .

(16) ابن منظور : لسان العرب المجلد الثالث عشر ص 443 دار صادر بيروت . دون تاريخ .

* العفاة جمع مفردة عاف وهو كل طالب فضل .

(17) ابن منظور : لسان العرب المجلد الثالث عشر ص 443 دار صادر بيروت . دون تاريخ .

اعتبارها آلهة بكل ما في كلمة آلهة من معنى وحتى إن لم تكن آلهة بالمعنى الكامل فهي نائبة عن الإلاه القادر على النفع والضرر .

والإشراك - عند الله - قَمّة الكفر ومنتهاه لأنه وإن دلّ على إيمان الإنسان - الإنسان في كل آن وحين بوجود قوة أو قوى - حسبها يعتقد - تسير الكون وتدبر أمره ، وإن دلّ أيضا على شعور الإنسان بالضعف أمام مصيبة الموت وأمام دفع الضرر والخطوب فإنه يدلّ أيضا على أن هذه الآلهة المعبودة عاجزة عن تدبير أمرها بمفردها وأنها تستعين في تسير الكون بطائفة من المخلوقات فتجعلها همزة وصل بينها وبين من خلقت لكانّها عجزت عن أن تحيط بكل شيء علما . لذلك عُدّ الإشراك كفرا لأنه نعت الله بما لا يمكن أن يُنعت به وهو العجز وتشريك المخلوقات « المخلوقة » في أمر الله الخالق . فمسألة الإشراك إذن هي من باب ضمّ العجز الى القدرة والنقصان الى الكمال والجهل الى الدراية والإهمال الى العناية .

والجدير بالذكر أن الأنصاب التي اتخذت في البدء رموزا مادية للإلاه قد أُمست بالنسبة إلى أقوام من العرب عديدين بعد مدة من الإبتهاال لها والعبادة آلهة حقيقية لا مجرد شفيعة أو نائبة عن الإلاه . وهذا التشبّث بالأنصاب راجع أساسا في نظرنا إلى السبب الذي قدّمناه آنفا وهو أن العرب في الجاهلية كانت تفضّل المرئي على المتصور والمحسوس على المجرّد والقريب على من بدا لبعضهم بعيدا .

ولئن اعتبرت عباد الآلهة المزعومة من قبل العرب قديما ضربا من الإحتماء والتحرّز والإستلطاف فيما قد تجري به صروف الدهر فإنها في القرآن عبادة باطلة ومثّل المحتمي بالآلهة المصنوعة من الحجر أو الخشب أو الحديد أو حتى الذهب كمثل المحتمي ببيت العنكبوت . يقول الله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ

اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . (18) .

والجدير بالذكر أن كلمة « شرك » ومشتقاتها كثيرة الورد في القرآن بحيث يمكن القول بأن الشرك كان عقيدة عامة سائدة قبل عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، الى جانب النصرانية التي انتشرت في بقاع محدودة هي نجران والحيرة وأرض طيء والغساسنة بالشام واليهودية التي كان مهدها يثرب واليمن وخيبر وتيما . ولم يقصد بالشرك عقيدة بعينها ولا مجموعة من الطقوس دون سواها بل الشرك هو إشراك ما دون الله مع الله سواء كان هذا الدون صنما أو وثنا أو ملكا من الملائكة أو قوة من قوى الطبيعة . ويمكن أن نميز بين ثلاثة أنواع من الإشراك بالله بالإعتماد على ما جاء في القرآن :

(1) الاعتراف بالله الواحد واعتبار الملائكة شفعاء عنده مع جعل الأوثان رموزا مادية للملائكة . قال الله تعالى على لسان الذين تقربوا الى الله بالملائكة : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » (18) ، وقال : « وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا » (19) ، وقال : « ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْؤُلَاءِ كَانُوا إِيَّاكُمْ يَعْبُدُونَ » (20) . فهذه آيات - وغيرها كثير تدل على أن من الناس من جعل بينه وبين الله وسيطا ليكون له عنده شفيعا . وقد رسخ مفهوم الوساطة أو الشفاعة في أذهان الكثير من عرب الجاهلية الى درجة أنهم نسوا عبادة الخالق وابتهلوا الى الملائكة وقدسوها ، ومن ثم نهى القرآن عن عبادتها ونفَى النفع والضرر عنها إذ الملائكة مخلوقات لا تقرب الى الله زلفى وليس باستطاعتها أن تنفع الناس شيئا ولا أن تضرهم . واعتبار الملائكة أربابا

(18) العنكبوت/ 41 .

(18) الزمر/ 3 .

(19) آل عمران/ 80 .

(20) سبأ/ 40 .

للشفاعة يؤكد ما ذهبنا اليه من أن العرب كانت تنشُد إلهها « تدركه الأبصار » لا إلهها يقره العقل وتدل عليه حكمة خلق الكون والكائنات . فكانت العرب اذا حَلَفَتْ باللَّات أو العزى أو مناة ، لم تكن واحدة من هذه غريبة عنها فكلها آلهة - الى جانب كونها موجودة بالفعل - قادرة على أن تنفع وتضر وضرها قريب لقربها منهم وكذلك سخطها . وما القرابين التي تهدى إلا دليل على رغبة الجاهلي في الإحتماء بها وتجنب غضبها .

(2) عبادة الجن : الجن مخلوقات يعسر ضبطها بدقة وتعريفها بوضوح . وبالنظر إلى الآيات التي فيها ذكر للجن نفهم بيسر أن الجن فريقان ، فريق تمحض للشر الخالص وفريق تمحض للخير . إلا أن الغالب على هذا النوع من المخلوقات هو الشر والإيذاء ومن هنا جاء خوف الناس منها وتقديس فريق من العرب لها . وليس غريبا أن يكون إبليس والشياطين والعفاريت فصائل أخرى من فصيلة الجن . فقد عُدَّ إبليس « أبا الجن » (21) على الإطلاق والشيطان « إبليس » أيضا والعفريت هو « القوي الشديد » من الجن .

يقول تبارك وتعالى : « فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » (22) ، وقال : « قَالَ عَفْرِتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ » (23) ، وقال أيضا : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ » 24 .

وقد نفى سيد قطب في تفسيره للقرآن المعروف بـ « في ظلال القرآن » أن تكون الجن قد تمحضت للشر أكثر من تمحضها للخير . بل أكثر من ذلك فهو يرى أن لها طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان تماما ودليله في ذلك قوله تعالى

(21) السيوطي والمحلي : تفسير القرآن ص 8 .

(22) الكهف/50 .

(23) النمل/39 .

(24) الأنعام/112 .

على « لسان » الجن : « وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ » (25) وقوله : « وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ » (26) (المقصود بالقاسطين الجائرون بكفرهم) . يقول سيد قطب : « وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين مسلمين وقاسطين ، يفيد ازدواج طبيعة الجن واستعدادهم للخير والشر كالإنسان إلا ما تمحّض للشر منهم وهو إبليس وقبيله وهو تقرير ذو أهمية بالغة في تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق فأغلبنا حتى الدارسين الفاهقين على اعتقاد أن الجن يمثلون الشر وقد خلصت طبيعتهم له . وأن الإنسان وحده بين الخلائق هو ذو الطبيعة المزدوجة » (27) . وهذا التفسير - رغم استناده الى آيتين من القرآن - غير مقنع لأن الآيات التي تذكر استكبار الجن عامة وإبليس بخاصة وتعنّت هذه المخلوقات وكفرها وركونها الى الشر وتغريها بالإنسان كثيرة جدا . فلم نر في القرآن صفات حميدة للجن إلا في « صورة الجن » لسماع الجن الرسول - صلعم - يتلو سوراً منه وهو يؤم الناس في الصلاة فأعجبهم القرآن واطمأنوا الى معانيه ، وفيما عدا ذلك فالجن بالعصيان والاستكبار معروفون وبالشر موسسون .

ولئن كانت الإنس من لحم ودم فإن الجن « من مارج من نار » (28) أو من « نار السموم » (29) وقيل من الهواء وقيل نفوس بشرية أيضا . فقد عرف البيضاوي الجن بقوله : « والجن أجسام عاقلة خفية يغلب عليهم النارية أو الهوائية وقيل نوع من الأرواح المجردة وقيل نفوس بشرية مفارقة عن أبدانها

(25) الجن/11 .

(26) الجن/14 .

(27) سيد قطب : في ظلال القرآن المجلد السادس دار الشرق ص 3732 دون تاريخ .

(28) الرحمان/15 .

(29) الحجر/27 .

وفيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم ولم يقرأ عليهم وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبر الله به رسوله « (30) .
ولما كانت الجن مخلوقات تؤذي أكثرها مما تنفع - كما دلّ على ذلك القرآن - وتسيء للناس ولا تحسن فقد خافها الإنسان وعبدها حتى ينجو من بطشها وغضبها .

ولم يعط ابن الكلبي - وهو كما لا يخفى أحد كبار أَلْعَرِيفِينَ بعبادات العرب في الجاهلية - صورة واضحة للجن ، فلا نعلم بالضبط إن كانت العرب عبدت الجن عن طريق الأوثان باعتبارها رموزا لها أو أنها عبدتها في سرها خوفا منها ، فكانت تشخص بأبصارها الى ما لا يرى ، إذ الجن - كما سبق أن ذكرنا - مخلوقات هوائية أو نارية أو أرواح مفارقة للأبدان . .

وقد اكتفى ابن الكلبي بالقول : « وكانت بنو مليح من خزاعة وهم رهط طلحة الطلحات يعبدون الجن وفيهم نزلت « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ » (31) . ويمكن تفسير سكوت ابن الكلبي عن مسألة الجن - باستثناء الملاحظة التي ذكرناها له في شأنها - بكونه خصص كتابين كاملين للجن ذكرهما الأستاذ أحمد زكي محقق « كتاب الأصنام » في قائمة مؤلفات ابن الكلبي نقلاً عن فهرست ابن النديم ؛ وهي مؤلفات ضاع أكثرها من جملتها « كتاب الجن » و « كتاب أخبار الجن وأشعارهم » (32) .

ومثلما نفى القرآن عن الشركاء النفع والضرر فقد نفى عن الجن الفعل والحركة والقدرة على الإيذاء . وشدّد النكير في آيات كثيرة على عبدة الجن وحقّر آلهتهم ونفى أن يكون لها اقتدار على البطش بالناس كما كان يُعتقد .

(30) تفسير البضاوي ج 5/154 .

(31) ابن الكلبي : كتاب الأصنام ص 34 .

(32) المرجع السابق ص ص 74 - 75 .

ولعل أحسن ما يدلّ على ذلك هذه الآية المتكونة من أربع فواصل كل واحدة منها مبدوءة باستفهام « أَلْهَمَ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا . . . الآية » (33) .

إن العبارة « أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا » توحى بذاك الخوف من الآلهة المعبودة فذكر القرآن عبدة الجن والمشركين جميعا بأن الشركاء ليس لهم أيد حتى يبطشوا بها ولا أعين ليروا بها كما أنهم عديمو السمع فأنى لهم نفع الناس أو ضررهم ؟

(3) إشراك ما لا يعقل ولا يسمع : وهي عبادة كانت متفشية عند العرب في الجاهلية وقد عدّ الجاهل عند طوائف كثيرة من العرب إلها كاملا لا مجرد رمز لإلاه كامل . وهذه العبادة سببها اعتقاد ساد آنذاك وهو أن ما لا يعقل ولا يسمع قادر على أن ينفع ويضر ؛ وبالإبتهال وحده الى هذا المعبود يستطيع المرء أن يحو خطيئة أو يُبعد خطبا أو يستدر عطفاً ، لذلك أكثر القرآن عند الحديث عنه من استعمال « ما لا ينفعكم شيئا ولا يضرركم » وشدد النكير مرة أخرى على عبدة الجاهل وقوى التنكير باستعمال الأسلوب الساخر ليرغب الناس عنه كما يدلّ على ذلك نصّ هذه الآيات :

« قُلْ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ » (24) ،

« قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا » (35) ،

« يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ » (36) .

(33) الأعراف/ 195 .

(34) الأنبياء/ 66 .

(35) الأنعام/ 71 .

(36) الحج/ 12 .

وتجدر الإشارة الى أن القرآن نفى عن هذه الآلهة كل قيمة فينب للناس أن آلهتهم عاجزة عن الفعل قاصرة عن الحركة وحتى إن عُدَّت آلهة فإن فوقها إلها أقوى وأكبر . وقد تدعّمت هذه الفكرة في جميع الآيات بالعبارة « من دون الله » . فهذه العبارة لا تعني عبادة إلهٍ غير الله فقط ، وإنما تعني أيضا أن كل ما سواه هو « دونه » عملاً - إن صحَّ أن يكون له عمل - ودونه صفاتٍ إن كانت له بحق صفات .

وقد صرّح القرآن بأنَّ من جُعِلُوا أرباباً « لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا (32) » لأنه لو كان زمام الكون ومصائر الناس بأيديهم لنفعوا أنفسهم بدرجة أولى . أفمن الجائز أن ينفعوا غيرهم وأنفسهم أحقَّ بالنفع ؟ وهل من الجائز أيضا أن يضرّوا غيرهم وهم عاجزون حتى عن دفع الضرّ عن أنفسهم ؟ يمكن أن نستنتج من هذا التقسيم الثلاثي للآلهة المعبودة وبالإستناد الى ما جاء في القرآن أن الآلهة في الجاهلية لم يكن لها جميعا نفس القيمة عند الجاهليين . فالفرق جلي بين الآلهة الشفيعية - هي شفيعية حسبا تعتقد طائفة من العرب - التي تتوسط للإنسان خيرا عند الله ، والآلهة الشريكة التي تشترك - حسب اعتقاد طائفة أخرى من العرب - مع الله في تدبير الكون وتسييره ، والآلهة « الكاملة » التي آمن بها نفر من العرب في الجاهلية ورأوا أن الخلق لها والمصائر بأيديها .

واعتمادا على هذا نفهم لماذا لم يسمّ القرآن هذه الآلهة بأسمائها - فيما عدا اللات والعزى ومناة ووَدَّ وسَوَاعَ وَيَعُوثَ ونَسْرَ وَيَعُوقَ بل أعطاهم نعتا وصفات هي النعوت والصفات التي أعطاهم إياها عبدتها وسَدَنُتُهَا . فكانوا يرون فيها الكمال ولا يرى الله وينسبون اليها النفع والضر والإيذاء والبطش

ولا ينسب الله اليها من ذلك شيئا . فجاء الحديث عنها في أسلوب ساخر متهمكم وكثر استعمال العبارات والتراكيب التي تفيد التبكيت والتعجيز من قبيل : « هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ » (33) ، أو : « أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ ؟ » (34) .

وقد جمع لنا القرآن صفات هذه الآلهة المعبودة في الآيات القرآنية عامة والمكية منها بخاصة باعتبار أن الفترة المكية كانت فترة التبشير بالدين الجديد وحث الناس على الإعراض عن عبادة الأوثان ، فاشتد فيها الصدام وكثرت المحاجة بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمشركون من قومه .

لقد سُمِّيت الآلهة أندادا في الآيات (البقرة/22 ، البقرة/165 ، إبراهيم/30 ، سبأ/33 ، الزمر/8 ، فصلت/9) .

ومما يلاحظ في هذه الآيات أن كلمة « أنداد » جاءت فيها مقترنة بعبارة « وجعلوا لله » في صيغة المفرد حيناً وفي صيغة الجمع أحيانا أخرى . والجمع يتوزع على جمع المتكلم (نجعل له) والجمع المخاطب (تجعلون) والجمع الغائب (وجعلوا له) . وجاءت هذه العبارة منفية في صيغة الجمع المخاطب (فلا تجعلوا) . واقتربت كلمة أنداد مرة واحدة بعبارة « من يتخذ من دون الله » .

وليس غريبا أن يستعمل القرآن في هذه الآيات فعلين من أفعال التحويل (اتخذ - جعل) ليفيد تحويل ما لا يتحول . فهذان فعلاان استعمالا لغير غايتهم الأصلية باعتبار أن غير العاقل تحول عند الجاهليين إلى عاقل وأن المخلوق انقلب خالقا . وليس في هذه الآيات تعجيز أو تبكيت وإنما فيها تهكم من المشركون واستخفاف بصنيعهم المتمثل في جعل غير الأنداد أندادا لله .

(38) يونس/31 .

(39) يونس/109 .

ولعل أهم ما يمكن أن نقف عليه فيها وننبه إليه هو أن فعلي « اتخذ » و « جعل » استعمالا ليفيدا معنى معيناً هو - إلى جانب التغيير والتحويل - الطرء والحدوث لما ليس له في الوجود أصل مع عدم ضمان دوامه واستمراره . ويؤكد ما نذهب إليه ، ما سيؤول إليه أمر هؤلاء الأنداد فيما بعد عندما سيأتي الإسلام ويدعو - فيما سيدعو إليه - الى عبادة إله واحد والإعراض عما سواه من المعبودات الأخرى .

وسميت الآلهة شهداء : (البقرة/23 ، الأنعام/150) . والمقصود بالشهداء « الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالى على زعمكم ليعينوكم » (35) . وقد ورد في الآيتين المشار إليهما عبارة « أدعوا شهداءكم » وهي عبارة قصد بها تبكيت وتعجيز الذين اعتقدوا أن الأصنام ستكون شاهدة لهم عند الله على أن ما كانوا يصنعون هو الحق ولا حق سواه .

ونجد طائفة من الأسماء الأخرى التي لئن اختلفت في ظاهر القول فإن معانيها واحدة أو تكاد . فقد سميت الآلهة أيضا :

شفعاء (الأعراف/53 ، الشعراء/100 ، المدثر/48 ، الأنعام/51 ، الروم/13 ، الأنعام/94 ، يونس/18 ، الزمر/43) .

وسميت أربابا (يوسف/39 ، آل عمران/64 ، آل عمران/80 ، التوبة/31) .

وسميت شركاء لاعتبارها شريكة لله في الملك (الروم/13 ، الأنعام/94 ، الأنعام/100 ، يونس/66 ، الرعد/16 ، الرعد/33 ، القلم/41 ، الأعراف/195 ، النحل/86) .

(40) البيضاوي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي ج 1/114 بيروت . دون تاريخ .

وسميت آلهة . وقد استعمل القرآن في شأنها المفرد أحيانا (إلاه) والجمع أحيانا أخرى (آلهة) . وتعتبر لفظة « إلاه » و « الله » من أكثر المفردات ورودا في القرآن لذلك يحسن الرجوع إليها فيه .

وسميت أولياء في أكثر من أربعين آية نذكر منها (آل عمران/28 النساء/76 النساء/89 النساء/139 النساء/144 المائدة/51 المائدة/57 المائدة/81 الأعراف/3 الأعراف/27 الأعراف/30 .

يرى محمد عزة دروزة أن الآلهة التي ذكرنا لم يكن لها من دور سوى الوساطة لا غير ، فهي تتوسط بين الإنسان وربّه لتطلب له عنده الغفران أو الإستنصار أو المساعدة . يقول : « تعابير الشفعاء والشهداء والأولياء تتضمن معنى التوسّل والتوسط والإستنصار أو الحاجة الى المساعدة والتقرب عند الله كما هو المتبادر . والشهداء كالسدنة المحافظين على البيوت المنقطعين لخدمتها » (36) .

يمكن أن نستنتج مما تقدم أن أكثر الآلهة شيوعا عند العرب في الجاهلية الآلهة المجسمة . وهي آلهة صنعها الجاهلي بيده كما سبق أن ذكرنا وقد توسّم فيها الخير وجعلها قريبة منه تظعن معه إذا ظعن وتستقر باستقراره ، فكان يجد في قربها منه حاميا له وواقيا من الأخطار والشُرور . وكان الإيمان بآلاه واحداً غير مجسّم يتعالى عن الشّبّه مع الإنسان وجميع الكائنات من الأمور الصعبة التصوّر لحاجة العربي قديما الى تحقيق غايات عاجلة لا تتحقق في نظره إلا بالتوسل والعبادة ولحرصه الشديد على إيجاد قوة مادية يراها رؤية العين ويتحسسها بيده يكون باستطاعتها أن تردّ ريب الدهر أو تخفّف من وطأته .

(41) محمد عزة دروزة : عصر النبي وبيئته قبل البعثة ط 2 ص 531 وما بعدها . دار اليقظة العربية بيروت 1384 هـ 1964 م .

فكان يرى في الأصنام والأوثان والنصب وما شابهها خير واق له من صروف الدهر ونوائبه .

ومهما كانت قيمة الآلهة التي عبدتها العرب فهي لم تبلغ من الشأن والقيمة ما بلغته آلهة الإغريق في القديم . فقد عظم الإغريق آلهتهم وشيّدوا لها الهياكل وأقاموا التماثيل واختلقوا حولها الحكايات والأساطير فكانت آلهتهم إلى جانبهم في حلّهم وترحالهم وفي حروبهم وأفراحهم وفي جميع مواسمهم وأعيادهم . وقد اختص كل إله بصفة من الصفات فكان للخير إله وللشر إله وللجمال إله وللخمر إله وهكذا . فوجود الآلهة عندهم لم يفرضه الخوف من المصير ولا الحاجة إلى دفع شر متوقّع وإنما حتمه شعور الإغريق الحاد بضرورة وجود آلهة لا تكتمل صورة الإنسان إلّا بها ولا يُعرف الكمال إلا بواسطتها . أما الجاهلي فلم يلجأ إلى الآلهة إلا لخوفه من الدهر الرّياب ففكّر في نفسه قبل أن يفكّر في آلهته وسعى إلى صون ذاته لا إلى صون آلهته والتضحية من أجلها فلم يقدّمها لذاتها بقدر ما قدمها لكونها قادرة في نظره على دفع الضر عنه .

فإلاه العربي في الجاهلية أوجده الخوف من المصير الغامض والخطب المتوقع ولم يوجده إقتناع ديني بضرورة وجود إله هو الأقوى والأكبر والأكمل .